تحولات معنى مفهوم التسامح
من فلاسفة الأنوار إلى ميثاق الأمم المتحدة
Changes in the meaning of the concept of tolerance of philosophers of light to the Charter of the United Nations

هرنون نصيرة[1]
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة
hernounenassira@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/01/15 القبول 2020/10/05 النشر على الخط 2021/01/15
Received 15/01/2019 Accepted 05/10/2020.Published online 15/01/2021

ملخص:

يعود تاريخ ميلاد التسامح في موطنه الأوروبي إلى ما يقارب الثلاثة قرون ، لكنه اتخذ صيغته النهائية في نهاية القرن السابع عشر على يد فلاسفة التنوير امثال جون لوك وفولتير وبيير بإيل، وجان جاك روسو وغيرهم....الخ

والذين ينحصر فيهم موضوع بحثنا وقد حددنا مشكلة بحثنا عموما حول التسامح كمفهوم متحوّل بمعنى أن القصد من مصطلح التسامح متغيّر وأن الأوروبيين استغلوا مبدأ التسامح لخدمة مصالحهم، فماهي التحوُلات التي عرفها معنى التسامح عبر الزمن؟ وكيف تم استغلاله من طرف الأوربيين؟

وقد استنتجنا من بحثنا أن مفهوم التسامح ديني المولد وكان معناه تقبُل الآخر المختلف في المذهب، لكن مع جون لوك ارتبط بالحقوق المدنية، ومع فولتير ارتبط بتعايش الأديان والحرية في المعتقد. وقد أخذ التسامح صورته السياسية في ميثاق الأمم المتحدة أين ارتبط التسامح بالديمقراطية وأصبح مبدأ من مبادئ حقوق الانسان.

الكلمات المفتاحية: التسامح،الاختلاف،التعايش،حقوق الانسان، حرية العقيدة، الديمقراطية، ميثاق الأمم المتحدة

Summary: The history of the birth of tolerance in its European homeland goes back nearly three centuries, but it was finalized at the end of the seventeenth century by philosophers of the Enlightenment such as John Locke, Voltaire, Pierre Bale, Jean-Jacques Rousseau and others .... etc.

And to whom the subject of our research is limited and we have defined the problem of our research in general about tolerance as a transformed concept, meaning that the intent of the term tolerance is changing and that Europeans have exploited the principle of tolerance to serve their interests, so what are the transformations that the meaning of tolerance has known over time? How was it used by the Europeans? We have deduced from our research that the concept of religious-born tolerance and its meaning was the acceptance of others who differ in doctrine, but with John Locke it was associated with civil rights, and with Voltaire it was associated with coexistence of religions and freedom of belief. Tolerance took its political form in the United Nations Charter, where tolerance was associated with democracy and became a principle of human rights. key words: Tolerance, pluralism, difference, coexistence, civil rights, human rights, freedom of belief, democracy, the United Nations Charter, tolerance is one of the principles of human rights.

key words: Tolerance, difference, coexistence, human rights, freedom of belief, democracy, the United Nations Charter

[1]– المؤلف المرسل: نصيرة هرنون البريد الإلكتروني: hernounenassira@yahoo.fr

مقدمة:

ظهر مفهوم التسامح في سياق الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وتعود أصول المفهوم ارهاصاته التاريخية إلى العصور الوسطى أين اشتعل فتيل التطرف الديني، الذي يتمظهر في العنف الديني والسياسي والاجرام الذي مارسته محاكم التفتيش آن ذاك، كانت الأثار الاجرامية عاملا رئيسيا في ارتفاع الأصوات المطالبة بالتسامح والتعايش ونبذ العنف والتطرف.

من هنا نستشف أن تاريخ ميلاد التسامح يعود في موطنه الاوروبي إلى ما يقارب الثلاثة قرون، لكنه اتخذ صيغته النهائية في نهاية القرن السابع عشر على يد فلاسفة التنوير امثال جون لوك و فولتير و بايل ، وجان جاك روسو وغيرهم.. ظهر مفهوم التسامح في الدول الغربية نتيجة الحاجة الملحة لاستقرا وأمن المجتمعات، الغارقة في الحروب الاهلية حيث عاشت أوروبا سنين طويلة، في صراع دموي مذهبي طائفي أحرق الأخضر واليابس.

انتهت هذه الحروب الضروس بميلاد مبدأ التسامح الذي حلّ معضلة التعصب الديني والطائفية التي أغرقت أوروبا في مستنقع التخلف، و الجهل و لملَم شتات أوروبا الممزقة وضمّد جراحها و أوقف نزيفها المزمن كما أعطى تقدما باهرا للمجتمعات المدنية و حرر الانسان من الارهاب والخوف وأرسى قوانين أكثر إنسانية تضمنها ميثاق الأمم المتحدة فيما بعد ، وكل ذلك بفضل جهود أعلام فلسفة الأنوار الذين ينحصر فيهم موضوع بحثنا وقد حددنا مشكلة بحثنا عموما حول التسامح كمفهوم متحول بمعنى أن القصد من مصطلح التسامح يتغير وأن الأوروبيين استغلوا مبدأ التسامح لخدمة مصالحهم ، فماهي التحوُلات التي عرفها معنى التسامح عبر الزمن؟ وكيف تم استغلاله من طرف الأوربيين؟

ما هو مفهومه عند فلاسفة الأنوار خصوصا؟ وماهي التحولات التي عرفها معناه؟ ما هو مفهوم التسامح اليوم؟

أولا: رؤية فلاسفة الأنوار للتسامح.

1.التسامح عند جون لوك:1632/ 1704

يعتبر تصور جون لوك ورسالته في التسامح، إحدى اللبنات الأساسية في التأصيل لمفهوم حقوق الإنسان، بمعناها العالمي المعاصر رغم انتمائه لعصر الأنوار؛ إذ لا مجال للحديث عن حقوق الإنسانية جمعاء دون الحديث على الحق والحرية في الاعتقاد، وهذا ما شكل جوهر، و روح، رسالة التسامح التي ألفها جون لوك. "ففي عام 1689م أصدر جون لوك رسالة عن التسامح كتبها باللاتينية دفاعا عن التسامح الانجليزي وأضاف ثلاث رسائل أخرى حول التسامح لكي يتم بحثه ويوضحه ". راهن في رسالته الشهيرة على جملة من الحقوق، التي ينبغي ضمانها لأصحاب الديانات المختلفة، وعدم اعتبار الاختلاف عامل هدم لحرياتهم، ونهب لحقوقهم.

وليس لأي شخص مهما كان أو أي مؤسسة مهما كانت أن يلحقا ضررا بممتلكاتهم، بدعوى أنهم يؤمنون بدين مخالف.

يقول جون لوك:" إن التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين .... يتماشى مع مقتضيات العقل الإنساني الحق حتى إنه لأمر غريب عند الناس أن يكون المرء أعمى إلى الدرجة التي لا يرى فيها ضرورة التسامح ومزاياه في ضوء ساطع كهذا " [1] .

يرفض جون لوك استخدام العنف والجبر من أجل فرض عقيدة دينية لأن المسيح لم يتسلح بالسيف أو بأي سلاح من العنف بل كان مسلحا بسلام العهد الجديد والأسوة الحسنة، فذلك كان منهجه في نظره ،و عليه ليس من حق أي أحد أن يقتحم، باسم الدين ،الحقوق المدنية والأمور الدنيوية " يبدو لي ان الدولة مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات ، المدنية والحفاظ عليها وتنميتها و أنا أعني بالخيرات المدنية الحياة و والصحة وراحة الجسم بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل الأرض والبيوت و المال والأثاث وما شابه ذلك" [2] ،فمهمة الحكومة المدنية تختلف اختلافا جوهريا عن مهمة الدين في نظره، ذلك ،أن الدولة ما هي إلّا هيئة تكونت لغرض واحد هو انماء مصالح أفرادها المدنية أي الاشتغال بالمور الدنيوية ،عن طريق التسامح فالتسامح هو المبدأ الذي يتيح للإيمان الصحيح أفضل فرصة لأن يسود "من واجب لحاكم المدني تطبيق القوانين ،بلا اسثناء لتوفير الضمانات التي تسمح لكل الناس على وجه العموم ،ولكل فرد على وجه الخصوص الامتلاك العادل للأشياء الدنيوية" [3]

فرق لوك بين وظيفة الدولة ووظيفة الدين و ألزم الدولة بضرورة السهر على حقوق المواطن المدنية وخدمة مصالحه الدنيوية دون التدخل في شؤون الدين التي تنشغل بعقيدة الفرد وأموره الروحية الأخروية، وهو بهذا يكون من المؤسسين للعلمانية التي أنقذت المجتمع الأوروبي من التسلط الكنسي، وشكلت القاعدة الأساسية التي ارتكزت عليها الدولة الحديثة فيما بعد .

مفهوم التسامح عند "جون لوك" ارتبط بالحقوق والواجبات المدنية التي تساعد المواطن على العيش في سلام وتضمن كرامته كما تضمن له كل حقوقه وتحدد له كل واجباته تجاه بلده. إلاّ أن من يتصفح نصوص لوك يجده يستثني طائفة الكاثوليك والملاحدة والمسلمين من التسامح، وهو بهذا لا يعتبر من دعاة التسامح الشامل يقول جون لوك: " لا يمكن التسامح على الاطلاق مع الذين ينكرون وجود الله فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري، ليس لها قيمة بالنسبة إلى الملحد فإنكار الله حتى لوكان بالفكر فقط يفك جميع الأشياء. هذا بالإضافة إلى ان أولئك الملحدين الذين يدمرون كل الأديان ليس من حقهم ان يستندوا إلى الدين لكي يتحدوا"[4] .التسامح عنده إذا ليس شاملا فهو يستثني بعض الفئات كما هو واضح في النص وهذا ما يحتسب على جون لوك.

"من السخرية ان يعلن الانسان انه مسلم فقط من حيث الدين ولكنه فيما عدا ذلك فإنه يعلن بانه مخلص لحاكم مسيحي في حين أنه يقر بأنه يطيع مفتي القسطنطينية طاعة عمياء، والذي يخضع بدوره خضوعا تاما للإمبراطور العثماني ويشكل الدين حسب

[1] جون لوك ، رسالة في التسامح، ترجمة، منى أبو سنة، تقديم و مراجعة مراد وهبة ،المجلس الأعلى للثقافة ،ط1 ، 1994، ص 23

[2] جون لوك المصدر نفسه ص23

[3] جون لوك ،المصدر نفسه ،ص24

[4] جون لوك المصدر نفسه،ص57

هواه. و لكن هذا المسلم الذي يعيش وسط المسيحيين يرفض حكومتهم بشكل واضح اذا أقر بن شخصا واحدا هو رئيس كنيسته والحاكم الأعلى للدولة"[1].وقد استثنى لوك هذه الفئات من تسامحه لأنها في نظره تدين بالولاء لحاكم آخر، لا تسامح عند لوك مع الكاثوليكي لأن، ولاؤه إنما هو لسلطة خارج الدولة التي يعيش في ظلها:" (فالكنيسة التي يخضع كل واحد فيها لأمير آخر ليس لها أن تحظى بتسامح الحاكم) ،وكذلك لا تسامح مع (التركي المسلم الذي يعيش تحت حكم دولة مسيحية إذا كان ولاؤه إنما هو للمفتي الذي هو تابع للإمبراطور العثماني) لا تسامح إذًا مع الكاثوليكي ولا مع المسلم ليس لأنهما على دين او مذهب مخالف ،بل بسبب ولائهما لسلطة أجنبية"[2]

يمنع التسامح مع هذه الفئات لا لأنها مختلفة في العقيدة بل لأنها تدين بالولاء لسلطة أجنبية وهذا ما يرفضه جون لوك بشدة لأنه ربط التسامح بالحقوق المدنية التي تضمن للفرد العيش في سلام وأمن وطمأنينة وهو الأمر الذي انتقد فيه جون لوك كثيرا لأن مفهومه للتسامح لم يكن شاملا كما هو الأمر عند معاصره بايل مثلا. من خلال ما تقدم يمكننا القول أن حقوق الفرد بكل أنواعها في نظر لوك، هي حقوق مقدسة لا ينبغي أن تطالها الأيدي من لدن أية سلطة مهما كانت طبيعتها.

فحتى لو كان الغرض من التشدد مع المختلف في الدين وعدم التسامح معه في نظره، ناتجا عن رغبة في إنقاذه وهدايته إلى سواء السبيل، فليس من حق صاحب هذا التصور أن يفرض عقيدة أو ملة ما، بالقوة والغصب، دون رضى المعني بالأمر، فعدم اقتناع الفرد به، يعد سبباً كافياً لإزالة الشرعية عنه، في نظره لأن الإنسان لا يستطيع أن يجبر إنسانًا آخر على التحلي بالإيمان قصرا ذلك أن الحقيقة في نظر لوك ستؤدي عملا عملا جيدا إذا ما تركت لتعدل نفسها فهي فينظره لا تدرّس من خلال القوانين كما أنها ليست بحاجة إلى القوة والعنف لتامين دخولها إلى عقول الناس لأن سلطة الحكم تكمن داخل الفرد الحر.

إن التسامح الذي أسس له جون لوك في كتابه المهم –رسالة في التسامح–هو أقرب إلى مجال السياسة، وتنظيم شؤون الدولة، فمن خلاله وضع حدوداً لكل من الكنيسة والدولة. لأن وظائفهما مختلفة عن بعضها بعض كما سبق الذكر وبهذا نجده أيضا قد وضع اللبنة الأولى في الفكر العلماني الذي كان عاملا أساسيا في استقرار أوروبا وازدهارها. رغم كل الانتقادات التي وجهت لجون لوك والتي تجعل من تسامح لوك تسامحا عنصريا، إلاّ أن الأفكار التي جاء بها شكلت الأرضية الأساسية لبيان الاستقلال الأمريكي فيما بعد. بالإضافة إلى أن أفكاره كانت مصدر إلهام للكثير من الأفكار التحررية في العالم الحديث والمعاصر.

2.التسامح عند بيير بايل: 1647/ 1706

كتبا لا تقل أهمية عن كتاب جون لوك في الدفاع عن التسامح الديني Pierre Bayle كتب نذكر بعض عناوينها "تعليقات فلسفية على من أجبرتموهم على الدخول في حظيرتكم 1686م "أي أجبرهم على الدخول في الدين والمسيحي ويخص بالذكر المذهب الكاثوليكي .

[1] جون لوك، **رسالة في التسامح**، ترجمة، منى أبو سنة، تقديم و مراجعة مراد وهبة ،المجلس الأعلى للثقافة ،ط1 ، 1994، ص57

[2] علي أومليل، ضمن كتاب جماعي ، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون،مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ،2013،بيروت ،ص103

وكتاب "ما تعنيه فرنسا الكاثوليكية المتعصبة في عهد لويس الكبير "،و له أيضا كتاب "مرافعة في الدفاع عن حقوق الضمير التائه"و الذي ينتقد فيه رفض التعددية الدينية ويطالب بحرية المعتقد.

وكذلك كتابه الشهير " القاموس التاريخي والنقدي" والذي يرجع له الفضل الكبير في تنوير العقول المسيحية في ذلك الوقت وبيير بل مفكر فرنسي حر لا يُقر بمقياس للحقيقة سوى العقل " يرى أن المعتقد الذي يبدو لنا مغلوطا يجب التسامح معه لأنه قد يكون حقا .ويرى أن، أكبر خطأ في أي دين هو ألا يكون متسامحا و من واجب الدولة أن تسمح بأي شيء إلا بعدم التسامح "[1].

فلا وجود ليقين مطلق عنده لأن الشيء اليقيني الوحيد في نظره هو "لا شيء يقيني" و كل المحاولات العقلية للإنسان حبلى بالتناقض والسخافة.فالعقل في نظره لا يمكنه أن يملك الحقيقة المطلقة.

و وفقا لمنهج التحليل النقدي الذي عُرف به بايل فقد نفى شرعية أي طرف في امتلاك الحقيقة النهائية وبذلك يشجب وثوقية الفلاسفة كما يستهجن اعتقادية اللاهوتيين ، دعا بيير بايل إلى التسامح التام الشامل مع كل المذاهب المسيحية والأديان بما فيها اليهودية والإسلام وحتى الملاحدة والكاثوليك الذين استثناهم (جون لوك) من التسامح.

فقد أوصى بضرورة التسامح مع كل الطوائف والديانات دون استثناء يقول بيير بيل "لاشيء أدعى إلى جعل العالم مسرحا داميا للاضطهاد والمذابح —من تقرير هذا المبدأ القائل بأن كل المعتقدين بحقيقة دينهم ، يحق لهم أن يبيدوا سائر الأديان .إن هذا يؤدي إلى إرجاع الجنس البشري إلى الحال نفسها التي يتحدث عنها رجال السياسة ،والتي كان فيها كل فرد سيدا وله الحق في كل شيء ،ما دامت لديه القوة للاستيلاء عليه.إن من الواضح أن الدين الحق ،أيا ما كان ،لا يحق له أن يدّعي أي امتياز يُخول له العنف مع الديانات الأخرى ،ولا يحق له أن يدّعي أن الأفعال التي يرتكبها هو بريئة،لكنها تكون جرائم إذا ارتكبها الآخرون"[2]

فلا يحق لأي دين مهما كان ان يدعي بأنه الأفضل ويسول لنفسه الكيل بمكيالين فينظر لنفسه بعين البراءة والنزاهة ويُجرم الآخر المختلف عنا لا لسبب فقط لأنه يختلف عنه في العقيدة ، لذلك طالب بحرية المعتقد وطالب بضرورة تعايش الأديان مهما كان نوعها بما فيها الديانات الوضعية بل التعايش حتى مع الملاحدة الذين استثناهم لوك من تسامحه لأن الملحد قد يكون مواطنا صالحا في دولة القانون في نظر بايل. فقد رفض فكرة التحول من مذهب لآخر عن طريق الغصب والقهر،رفض سياسة لويس الرابع عشر في إرغام البروستانتيين على اعتناق الكاثوليكية بالغصب و القوة والتعذيب.أكّد بيل على أن مجتمعا من الملحدين قد يكون أفضل خُلقا من مجتمع من المسيحيين المؤمنين.

فأخلاق الملحد قد تكون أفضل من أخلاق المؤمن بل لا يستبعد أن يكون المؤمن مجرما. وقد كتب بايل عن"انحرافات جنسية لمؤمنين ومتعصبين ومصلحين وباباوات، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بايل وضع مفارقة بين الاخلاق والدين مؤكدا أن أكبر الآثمين في تاريخ البشرية يؤمنون بوجود إله وحتى ابليس في نظره يؤمن بوجود الله ومنه يخلص إلى أن خبث المجرم البشري يشبه خبث ابليس لأن كلاهما يؤمن بوجود الله، عكس جون لوك. ما نخلص إليه هو أنه كل من جون لوك أو بيير بايل قد مهدا الأرضية لحرية المعتقد

[1] الموسوعة الفلسفية العربية ص 254

[2] عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة ، منشورات ذوي القربى،الجزء الأول ص 59و60

الديني ونبذوا التعصب والتطرف الديني رغم اختلافهما في بعض القضايا، فكل فرد حر في اعتناق الدين الذي يشاء وكذلك هو حر في عدم اعتناق أي دين ومع، ذلك يظل مواطنا له كل الحقوق وملزم بكل الواجبات لأن مسألة الايمان تبقى بين العبد وربه.

3.التسامح عند فولتير 1778/1694

فولتير هو من أمسك مشعل التسامح ونبذ التعصب بعد بايل ولوك، ويمكننا ربط مفهوم التسامح لديه مع حادثة "عائلة كالاس " التي نصّب فولتير نفسه محاميا للدفاع عنها، ومفاد هذه الحادثة أن جون كالاس–وهو راعي كنيسة بروتستانتي – أتهم ظُلما بقتل ولده الذي تحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية و قد تجند فولتير لهذه القضية إلى أن صدر الحكم بتبرئة العائلة وقد استقبل حكم البراءة استقبالا حاشدا"[1] –علما أن الشاب مات منتحرا– فمهوم التسامح عنده لم يبقى حبيس التصورات الذهنية ،بل تجسد على أرض الواقع من خلال نتيجة المحاكمة التي استقبلتها حشود من الناس . فمفهوم التسامح عنده يقترب من المفهوم المعاصر لنا وقد ارتبط بمفهوم الرأي العام بلغة عصرنا ، نبذ فولتير كل أشكال العنف والتعصب و الانغلاق ،لأن الإنسانية لا تجني منه إلا الدمار"العالم بأسره يقطع لنا الدليل على أنه لا جدوى من ممارسة التعصب ولا حتى من الدعوة إليه"[2] .يؤكد فولتير أن" العنف المسعور الذي يدفع إليه العقل اللاهوتي المغلق، والغلوّ في الدين المسيحي المساء فهمه،قد تسببا في سفك الدماء وفي إنزال الكوارث بألمانيا وبانكلترا بل حتى بهولندا ، بضرر لا يقل عما حدث في فرنسا. ولكن على عكس واقع الحال عما في فرنسا ،فإن تباين الأديان ما عاد اليوم يتأدى إلى حدوث اضطرابات وقلاقل في تلك الأقطار فاليهودي والكاثوليكي ،والأورثودوكسي ،واللوثري والكالفاني وداع تجديد المعمودية والسوسيني... وسواهم غدو يعيشون بتآخ في تلك الأقطار ويساهمون على قدم من المساواة في خدمة مجتمعهم "[3] وقد أشاد فولتير بالتسامح الذي عرفه المجتمع الياباني الذي تعايشت فيه الكثير من الديانات."لقد كان اليابانيون أكثر الناس تسامحا،فقد تعايشت اثنتا عشرة ديانة في امبراطوريتهم"[4]

أكد فولتير ان الإقرار بالتعددية يخفف من حدة وخطورة الطائفية وهذا ما تحتاجه الدول العربية اليوم "بقدر ما يزداد عدد الطوائف والنحل تخف خطورة كل واحدة منها على حدة، فالتعدد يضعفها ويقلل من شأنها ،ولا سيما عندما تخضع جميعها دونما تمييز.لقوانين عادلة تردعها ،قوانين تحظر التجمعات الصاخبة، وتنهى عن الشتائم والفتنة وتلقى فاعلة بكل قوة بحكم سريان مفعولها على الجميع "[5].إن التسامح في خلاصة القول ، لم يتسبب أبدا في إثارة الفتن الحروب الأهلية في "حين ان عدم التسامح قد عمم المذابح على وجه الأرض فلنحكم الآن بين تينيك الغريمتن بين الأم التي تود أن يذبح ابنها والأم التي تتخلى عنه كي يبقى على قيد الحياة "[6] . يرى فولتير أن حرية المعتقد هي السبيل إلى تقبل التسامح وهو بهذا يتقاطع فيه مع سابقيه " إن ألمانيا ما كانت لتكون اليوم إلاّ صحراء بلقعا تغطها عظام الانجيليين، والبروتستانتيين، والكاثوليكيين وأتباع تجديد المعمودية، الذين ذبحوا بعضهم بعضا

[1] علي أومليل،كتاب جماعي الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون،مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ،2013،بيروت ،ص 104

[2] فولتير،رسالة في التسامح،ترجمة هنريت عبودي،ط الأولى،2009،دار بترا للنشر والتوزيع ،دمشق،ص40

[3] فولتير،رسالة في التسامح ،ص 31

[4] فولتير المصدر نفسه ص 37

[5] فولتير المصدر نفسه ص 44

[6] فولتير ،المصدر نفسه ص41

تباعا، لو لم تأت معاهدة وستفاليا في آخر الأمر لتؤكد حرية المعتقد"[1] فقد نبذ التعصب الديني ونبذ العنف الأصولي الكاثوليكي بصفة خاصة،ذلك ان حرية المعتقد تضمن العيش في سلام وتضمن حقوق الافراد على اختلاف انتماءاتهم الأيدولوجية أو العقدية.

من خلال ما تقدم يمكننا القول أن فكرة التسامح " لم تنشأ ،في الوعي الإنساني الحديث ،بالتلقاء وأحكام الولادة الطبيعية، ولاهي تولدت من نزعة انسانية تدفقت روحها في التاريخ و مجتمعاته، وإنما هي أتت ثمرة مخاضات و صراعات وحروب دموية كانت أوروبا مسرحا لها، فيما بات يعرف في كتب التاريخ باسم الحروب الدينية"[2]

فقد ظهر مفهوم التسامح في الدول الغربية نتيجة الحاجة الملحة لاستقرا و أمن المجتمعات، كان التسامح في الفكر الغربي ديني المولد و راتبط معناه، بتحمُل الآخر و نبذ العنف و التعصب، ثم أصبح بعد ذلك، يعني التعايش مع الآخر المختلف في الدين والمذهب وقد تحول في الوقت الحاضر إلى مبدأ من مبادئ حقوق الانسان وهذا ما أقره ميثاق الأمم المتحدة كما سيتبيّن.

لقد بدت الفكرة لحظتئذ، وكأنها اعتراف بأمر واقع مقضي "بعد أن عزّت إمكانية حسم الحرب بإلغاء أحد أطرافها .....وما كان من مناص حينها سوى الاعتراف بهذا الواقع التعددي الجديد، في الخريطة الدينية وشرعنته باسم مبدأ جديد وكان هذا المبدأ هو التسامح"[3]

ثانيا: التسامح كمبدأ من مبادئ حقوق الانسان (في ميثاق الأمم المتحدة)

" **في نهاية** عام 1994 وجه المدير العام لليونيسكو نداء عالمي من أجل التسامح، أدان فيه التطهير العرقي، والإرهاب، والتطرف الثقافي والديني، الاستعباد الجماعي والتمييز العنصري، بينما أشاد بالحوار واللاّ عُنف باعتبارهما أفضل الوسائل لحل النزاعات.

وفقا لقرار الجمعية العامة 213/49،تقدم هذه الوثيقة إلى الجمعية العامة نص الإعلان وخطة عمل لمتابعة سنة الأمم المتحدة للتسامح (1995).

جاء في مطلع نص ميثاق الأمم المتحدة " نحن شعوب الأمم المتحدة، و قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ...و أن نؤكد من جديد إيمانا بالحقوق الأساسية للإنسان و بكرامة الفرد وقدره...وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح و أن نعيش معا في سلام وحسن جوار"

كما أكد الإعلان العالمي لحقوق الانسان في المادة 26 أن التربية" يجب أن تهدف إلى تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب و الجماعات العنصرية أو الدينية"

كما يشدد ميثاق الأمم المتحدة على ضرورة احترام حقوق الانسان بغض النظر عن العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الأصل القومي أو الدين أو أي تمييز بسبب عجز أو عوق. و يطالب بضرورة مكافحة اللاّ تسامح.

---

[1] فولتير المصدر نفه ص43

عبد الاله بلقزيز، مقدمة كتاب جماعي،، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون،مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ،2013،بيروت [2] ،ص11

عبد الاله بلقزيز، مقدمة كتاب جماعي،، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون،مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ،2013،بيروت [3]،ص11

لذلك عزموا على اتخاذ التدابير اللازمة لتعزيز التسامح في المجتمعات لأنه مبدأ ضروري للسلام و للتقدم الاقتصادي والاجتماعي لكل الشعوب.

معنى التسامح في ميثاق الأمم المتحدة :

حددت منظمة اليونيسكو مفهوم التسامح بشكل دقيق شمل جميع المجالات والأبعاد وقد استوفتنا جملة من النصوص التي يمكننا أن نستجلي من خلالها مفهوم التسامح في عصرنا الحالي بدقة فائقة.

"إن التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد إنه الوئام في سياق الاختلاف .وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب ،وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا ، و التسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب "[1] . نلمس تحول مفهوم التسامح من معناه الأخلاقي كما كان عند فلاسفة الأنوار إلى معناه السياسي "لكن ما إن استطاع هذا العقل أن ينتصر ويفرض نفسه سياسيا ثم بشكل أخص قانونيا وتشريعيا حتى ضمن لكل فرد حرية التفكير التعبير والنشر هكذا انكشف الطابع السلبي والضيق جدا للتسامح الديني .هذا ما حدث في أوروبا بشكل تدريجي منذ عصر التنوير ولكن عالم الإسلام لا يزال يُعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة"[2]

وهو المعنى الذي نأمل أن يتحقق داخل المجتمعات العربية، "إن التسامح لا يعني المساومة أو التنازل أو التساهل ،بل التسامح هو قبل كل شيء،اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوق الانسان وحرياته الأساسية المعترف بها عالميا .....والتسامح ممارسة ينبغي أن يأخذ بها الأفراد والجماعات والدول"[3]

التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الانسان والتعددية (بما في ذلك التعددية الثقافية)والديمقراطية وحكم القانون، وهو ينطوي على رفض الدوغماتية والاستبدادية و يثبت المعايير التي تنص عليها الصكوك الدولية الخاصة بحقوق الانسان"[4]

فالديمقراطية هي سبيل التعايش السلمي كونها تراعي الواقع التعددي وتمتص كل الاختلافات"...وحول الديمقراطية ينبغي أن يتكون وفاق عام بين المثقفين ، ضدا على أفكار الاستبداد ، وعقائد الاستبداد ونظم الاستبداد مهما كان الجلد الذي تتلبس به هذه الافكار"[5]. إن الديمقراطية هي "خير نظام لتدبير التعدد والحوار والتنافس السلمي والتعايش"[6]

---

[1] ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الانسان ،1996/ 201 /51 /A ص 7

[2] محمد أركون ، المصدر نفسه ،ص244

[3] المصدر نفسه ص7

[4] ا محمد أركون ،قضايا في نقد العقل العربي،ترجمة هاشم صالح ، دار الطليهة بيروت،ط3 ،2004

[5] علي أومليل، السلطة السياسية والسلطة الثقافية ، ص 25 ص 26

[6] علي أومليل: الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي، ص 125.

و عليه فإن ممارسة التسامح في اعتقادنا ،لا تعني تقبُل الظلم و التهاون ،بل تعني أن المرء حر في التمسك بمعتقده والآخرون أيضا أحرار في ذلك لأن التسامح يُقر "بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم و لغاتهم وسلوكهم وقيمهم لهم الحق في العيش بسلام وأن يطابق مظهرهم مخبرهم وهي تعني أن آراء الفرد لا ينبغي أن تفرض على آراء الغير"[1]

التسامح بمعناه المعاصر يختلف عن معناه في بداية ظهوره فالتسامح اليوم،هو اعتراف بالحرية العقدية وبحرية ممارسة الطقوس والشعائر الدينية، هو احترام الموقف المخالف و اعتراف متبادل بالحق في الاختلاف وتعايش الآراء والمعتقدات الدينية السماوية منها أو الوضعية هو التعايش السلمي و العيش المشترك.

الأمم المتحدة ربطت انتشار قيم التسامح بالدول والمؤسسات السياسية كونها الهيئات المسؤولة عن ضمان العدل وتحقيق تكافؤ الفرص للجميع "إن التسامح على مستوى الدولة يقتضي ضمان العدل وعدم التحيز في التشريعات وفي إنفاذ القوانين و الإجراءات القضائية والإدارية. وهو يقتضي إتاحة الفرص الاقتصادية والاجتماعية دون أي تمييز "[2]

ولتحقيق الوئام على المستوى الدولي لابد "أن يلقى التعدد الثقافي الذي يميز الأسرة البشرية قبولا واحتراما من جانب الأفراد والجماعات والأمم. فبدون التسامح لا يمكن أ يكون هناك سلام وبدون السلام لا يمكن أن تكون هناك تنمية أو ديمقراطية "[3] لابد من الإقرار بالتعدد الثقافي من ثمة التعايش فيما بينها لأن لجميع الأفراد والجماعات الحق في أن يكونوا مختلفين بعضهم عن بعض.

أما على مستوى البعد الاجتماعي للتسامح فإنه اليوم

أمر جوهري في العالم الحديث أكثر منه في أي وقت مضى.

"فهذا العصر يتميز بعولمة الاقتصاد وبالسرعة المتزايدة في الحركة والتنقل والاتصال، والتكامل والتكافل، وحركات الهجرة وانتقال السكان على نطاق واسع والتوسع الحضري، وتغير الأنماط الاجتماعية ولما كان التنوع ماثلا في كل بقعة من بقاع العالم. فإن تصاعد حدة عدم التسامح والنزاع بات خطرا يهدد ضمنا كل منطقة ولا يقتصر هذا الخطرعلى بلد بعينه بل يشمل العالم بأسره "[4]

"[4]

يتعزز التسامح عن طريق التفتح على الآخر والتضامن معه والاصغاء لبعضنا البعض والتحاور وتراهن الامم المتحدة على دور المدارس التربوي والتعليمي في التأصيل لمبدأ التسامح وكذا الجامعات و مواقع العمل، بالإضافة لوسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الاعلام والاتصال والتي يمكنها جميعا المشاركة في نشر فكرة التسامح ونبذ التعصب و اللّا تسامح والعنف والتطرف.

يجدر بنا ضبط مفهوم التسامح في نهاية بحثنا ضبطا اصطلاحيا لتعميم الفائدة لأن هذا المصطلح عرف تحولات في استعمالاته كما سبق الذكر في متن بحثنا.

---

[1] ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الانسان 1996/ 201 /51 /A ص 7

[2] المصدر نفسه، ص7

[3] المصدر نفسه ،ص 8

[4] المصدر نفسه ،ص ص 9 ،8

ضبط مفهوم التسامح

أكد لالاند ان مصطلح التسامح ديني المولد "ولدت كلمة التسامح في القرن السادس عشر ميلادي نتيجة الحروب الدينية بين الكاثوليك و البروتستانت فقد انتهى الأمر بأن تساهل الكاثوليك مع" البروتستانت" و العكس ثم صار التسامح يرتجي اتجاه جميع الديانات و كل المعتقدات وفي آخر المطاف في القرن التاسع عشر شمل التسامح الفكر الحر"[1]،كما يعرفه أيضا بقوله: "هو طريقة تصرف شخص يتحمل دون اعتراض أذى مألوف يمس حقوقه الدقيقة بينما في إمكانه رد الأذية"[2] من خلال تعريف لالاند نلمس التحول الذي طرأ على مفهوم التسامح فمن معنى التساهل مع الآخر إلى الحرية.

أما جميل صليبا فيعرفه كما يلي: "التسامح هو أن تترك لكل انسان حرية التعبير عن آرئه وإن كانت مضادة لآرائك .....والتسامح هو أن يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده أنها محاولة التعبير عن جانب من جوانب الحقيقة..... فليس تسامحنا في ترك الناس وما هم عليه من عاداتهم واعتقاداتهم وآرائهم مما نجود به عليهم، وإنما هو واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية "[3] ومن معانيه أنه سلوك شخص يتحمل دون اعتراض أي هجوم على حقوقه في الوقت الذي يمكنه فيه تجنب هذه الاساءة. ويعني استعداد المرء لأن يترك الآخر حرية التعبير عن رأيه ولو مخالفا ولو خطأ "[4].جميل صليبا يربط مفهوم التسامح بالأخلاق.

بالإضافة لمعنى التسامح الإيجابي يأخذ التسامح "معنى سلبي لأننا نتسامح مع الاشياء التي لا نستطيع أن نقف ضدها وهنا يظهر التسامح في موقف الضعف، يرتبط التسامح بالضعف حين نصف شخص بأنه متسامح يستشف من هذا الوصف شيء من الاحتقار نحوه وحين يقال عن شخص أن أفكاره متسامحة معناه أنه يغمض عينيه عما يريد قوله"[5] وهذا المعنى للتسامح ليس موضوع بحثنا لأنه ظهر عند مولد المصطلح في نهاية الحروب الصليبية الطائفية، ما نسعى لتحليله في بحثنا هو فعّالية مبدأ التسامح في الدوّل الأوروبية ، لأن مفهوم التسامح عرف الكثير من التحوُلات والاستعمالات منذ ميلاده إلى غاية أن اصبح مبدأ من مبادئ الأمم المتحدة.

و للعلم فقد كان مرسوم نانت الشهير الذي صدر 13أفريل عام 1598 من طرف ملك فرنسا هنري الرابع أوّل اعتراف رسمي بمبدأ التسامح مع الأقليات البروتستانتية الفرنسية (أو طائفة الهوغونوت) منحهم فيه حق ممارسة الشعائر الدينية وحرية المعتقد والمساواة مع الأغلبية الرومانية الكاثوليكية.

مغزى التسامح هو محاولة التقدم نحو الأمام وللأفضل مهما كانت الصعوبات لابد من التكيف معها بل وتجاوزها لأن التسامح سبيل السلام والأمان وفي غيابه يغيب التقدم والابداع والتطور بكل معانيه.

---

[1] أندري لالاند:موسوعة لا لاند الفلسفية،المجلد1،تر،خليل أحمد خليل،دار عويدات،بيروت ،ط2 ،2001،ص1460

[2] أندري لالاند:موسوعة لا لاند الفلسفية،المجلد1،تر،خليل أحمد خليل،دار عويدات،بيروت ،ط2 ،2001،ص1460

[3] جميل صليبا المعجم الفلسفي ج1 دا الكتاب اللبناني ، بيروت،1982 ص 271

[4] جميل صليبا **المعجم الفلسفي ج1** دا الكتاب اللبناني ، بيروت،1982 ص 272

[5] الموسوعة الفلسفية العربية ص253

خاتمة:

من خلال ما تقدم نستخلص أهم النتائج التي توصلنا إليها من بحثنا والتي نحاول من خلالها الاجابة عن المشكلة المطروحة في المقدمة. تغير التسامح من مفهوم ديني إلى مصطلح سياسي بامتياز إلى مبدأ من مبادئ حقوق الانسان .

لذلك لابد من الحذر عند استعماله في مجتمعاتنا العربية حسب اعتقادي هو مصطلح يستعمله الغرب للكيل بمكيالين.

عرف التسامح معاني مختلفة واستعمالات متعددة منذ ميلاده، فقد أجمعت القواميس والموسوعات على أن مصطلح التسامح وليد الحروب الدينية التي عرفتها أوروبا في عصر تخلفها وقد كان يعني في بداية ظهوره تقبُل وتحمُل الآخر المختلف في المذهب.

مع فلاسفة الأنوار استعمله جون لوك استعمال سياسي حيث رفض الحق الالهي للملوك، وفرق بين السلطة السياسة والدينية من خلال مبدأ التسامح. مؤكدا على حرية الفعل و حرية العقل وحرية الضمير مطالبا بضرورة التسامح مع مختلف الديانات والفئات لكنه استثنى من تسامحه الملاحدة والمسلمين لأن ولائهم لحاكم آخر غير الحاكم المسيحي وبهذا انتقده البعض ونظر لتسامحه على أنه غير شامل كونه يقصي بعض الفئات.

أما التسامح عند بيار بايل فكان يعني نبذ التعصب والتطرف، وعلى عكس جون لوك فقد شمل التسامح عنده جميع العقائد و المذاهب والفئات دون استثناء، شرطه الوحيد في ذلك هو ألا يُخل صاحب معتقد مخالف النظام العام ومعيار القياس هو (نور الضمير) على حد تعبيرة أو ما يعرف بحرية ضمير الفرد.

بينما التسامح عند فولتير تجاوز مفهومه مجرد فكرة في أذهان أصحابه إلى تجسيده على أرض الواقع أين أصبح مرتبطا بالرأي العام فقد حدث تغيُر في العقلية العامة في عصره وظهرت قوة الرأي العام كسند أساسي له.

أقّر فولتير أن التعدد والتعايش يخفف من الطائفية بل ويقضي عليها.

أكثر التعاريف شمولا للتسامح هو تعريف منظمة اليونيسكو، الذي تضمنه ميثاق الأمم المتحدة أين ارتدى التسامح ثوبا سياسيا محضا و ارتبط بالديمقراطية وحقوق الانسان والحرية فقد نبذ ميثاق الامم المتحدة التعصب وحاول إقرار التسامح والتعدد وفرض التعايش ونشر ثقافة العيش المشترك والتعايش السلمي بين مختلف الشعوب مهما اختلفت الألوان والأجناس واللغات والثقافات.

لقد أرسى مفهوم التسامح في الفكر الغربي قوانين اكثر انسانية و فرضت على الدول انماطاً جديدة من التفكير وإعمال العقل لاستنباط مخارج تجنب البشرية العنف والتعصب وكان ذلك بفضل جهود فلاسفة الانوار وعلى رأسهم جون لوك ،بيير بايل،جون جاك روسو،وفولتير.....الخ بالإضافة للمجهودات التي تبذلها المنظمات الدولية في سبيل التخفيف من مُعانات الشعوب المستضعفة.

وما احوجنا نحن أبناء الأمة العربية للتسامح بمعناه الايجابي الفعّال للخروج من مأزق الطائفية والتعصب الذي مزّق صفوفنا ردحا من الزمن ولا نزال نتخبط في تبعات هذا التمزق والتناحر وخير مثال على ذلك ما تشهده الساحة السياسية العربية ، السعودية واليمن ، تشرد الشعب السوري، و قبله تدمير الشعب العراقي دون أن ننسى ثورات الربيع العربي وسيكون موضوع بحثنا المقبل بحول الله، حاجة الدول العربية للتسامح.

قائمة المصادر و المراجع

1.جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة، منى أبو سنة، تقديم و مراجعة مراد وهبة ،المجلس الأعلى للثقافة ،ط1، 1994
2.فولتير،رسالة في التسامح،ترجمة هنريت عبودي،ط الأولى،2009،دار بترا للنشر والتوزيع ،دمشق
3. علي أومليل،السلطة السياسية والسلطة الثقافية، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2، 1998، بيروت
4.علي أومليل: الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1
5.علي أومليل و آخرون،كتاب جماعي الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون،مركز دراسات الوحدة العربية ط1 ،2013،بيروت
6. محمد أركون ،قضايا في نقد العقل العربي،ترجمة هاشم صالح ، دار الطليهة بيروت،ط3 ،2004
A/51 / 201 /71996.ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الانسان
8.أندري لالاند:موسوعة لا لاند الفلسفية،المجلد1،تر،خليل أحمد خليل،دار عويدات،بيروت ،ط2 ،2001
9. عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة ، منشورات ذوي القربى،الجزء الأول
10. الموسوعة الفلسفية العربية، ،المجلد الثاني ،ط1، 1988
11.جميل صليبا المعجم الفلسفي ج1 دا الكتاب اللبناني ، بيروت،1982